شعر المجون في العصر العباسي الثاني: ابن الحجاج أنموذجا

د. كمال لفنوني
مختبر اللغة والنص
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، المغرب

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على ظاهرة المجون في العصر العباسي الثاني التي طغت طغيانا لا مثيل له على عهد بني بويه، والتي انعكست صورتها في الحياة الأدبية انعكاسا تاما؛ فأصبح الأدب يلون بلون ماجن خليع، ولعل خير من احتفى بهذا النوع من الأدب في هذا العصر، الشاعر ابن الحجاج الذي كان مرآة صافية عكست ظواهر شعره؛ فصور لنا الجانب اللاهي من حياة الناس عموما وحياة الأدباء خصوصا، فجاء شعره كثيرا ومتنوعا؛ منه ما قيل في الخمر والغناء، ومنه ما قيل في الغزل بالجواري والغلمان، ومنه ما قيل في وصف المقاذر والفحش. وحتى نضع القارئ في الإطار العام لظاهرة مجون ابن الحجاج في شعره، عرضنا الأخبار المتصلة بمجونه والتي ساقها مؤرخو هذا الأدب – وعلى رأسهم الثعالبي – وقابلناها بأشعاره في هذا الباب بالتحليل والمناقشة. وقد تمت دراستها في ثلاثة مواضيع رئيسة، هي: مجونه في الخمر والغناء، ومجونه في الغزل بالجواري والغلمان، ومجونه في المقاذر والفحش.

الكلمات المفتاح: ظاهرة–المجون –الشعر

Abstract

This study aims to identify the phenomenon of immorality in the second Abbasid era, which dominated the era of Banu Buyeh with an unparalleled tyranny, and whose image was completely reflected in literary life. Literature became colored in a licentious colour, and perhaps the best person to celebrate this type of literature in this era was the poet Ibn al-Hajjaj, who was a clear mirror that reflected the phenomena of his poetry. He depicted for us the fun side of people's lives in general and the lives of writers in particular. His poetry was abundant and varied. Some of it is what was said about drinking and singing, some of it was said about flirting with female slaves and boys, and some of it was said about describing filthiness and indecency. In order to place the reader in the general framework of the phenomenon of Ibn al-Hajjaj's debauchery in his poetry, we presented the news related to his debauchery presented by the historians of this literature - led by Al-Tha'alabi - and we compared them to his poetry in this section with analysis and discussion. It was studied on three main topics: immorality in drinking and singing, immorality in flirting with female slaves and boys, and immorality in filth and indecency.

Keywords : phenomenon - promiscuity – poetry

تقديم

تشهد المصادر التاريخية بأن العصر العباسي الثاني عرف اضطرابا في الحياة السياسية والإدارية، وفسادا في الحالة الاقتصادية، وظهورا للعادات والتقاليد الفارسية في المجتمع العربي الإسلامي، وذلك في ظل حكم آل بويه (334هـ - 447هـ)- وهم من الجنس الفارسي- الذين استبدوا بالحكم وسيطروا على النفوذ في بعض أنحاء البلاد العربية الإسلامية؛ مما سبب اختلالا ملموسا في التوازن الاجتماعي بين الطبقات، وانحلالا عاما في الأخلاق؛ نتج عنهما فئتان اجتماعيتان متناقضتان: فئة الخاصة من الملوك والأمراء، والوزراء والرؤساء، التي كانت تعيش حياة النعيم والترف واليسر، وفئة العامة من الشعب التي كانت غريقة البؤس والحرمان والفقر. كما كان من آثار ذلك الاضطراب ذيوع مظاهر اللهو والمجون بين مختلف شرائح المجتمع.

وباعتبار الأدب تعبيرا عن الحياة كما يحسها الأديب من خلال وجدانه، وتصويرا لانعكاسها على نفسه؛ إذ يعبر عن عالمه النفسي، ويساير عمق إدراكه للوجود وانفعاله بالحياة واندماجه في البيئة العامة، فإنه من الطبيعي أن يتأثر الأدب بالبيئة الاجتماعية لهذا العصر، فيصور مظاهرها المختلفة من غنى وفقر وبؤس ومجون وخلاعة.

وهكذا أنتج لنا هذا الأدب صورا أدبية شتى تعكس مظاهر البيئة الاجتماعية عكسا دقيقا؛ منها ما يميل إلى حياة الترف والنعيم، ومنها ما يميل إلى حياة الفقر والجحيم، ومنها ما يميل إلى حياة اللهو والمجون.

لقد ساهم التفسخ العام في الأخلاق الذي شهده العصر العباسي في ظل حكم آل بويه في انتشار مجالس اللهو والمجون بين قسم من الناس على اختلاف طبقاتهم من الخلفاء والقادة والولاة والأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم؛ إذ "طغت ظاهرة المجون طغيانا لا مثيل له، بحيث أصبح الشراب عادة للكثيرين حتى عند ذوي المناصب الدينية، كما أصبح الولع بالغلمان والعبث بالجواري شأن العامة والخاصة، و بالإضافة إلى هذا وذاك كانت ألفاظ المقاذر والفحش دائرة على كل لسان"[1].

هذه الظاهرة الاجتماعية العامة أثرت في الحياة الأدبية تأثيرا تاما؛ فأنتجت أدبا ماجنا خليعا، ولعل خير من احتفى بهذا النوع من الأدب في هذا العصر، ابن الحجاج الذي كان مرآة صافية عكست ظواهر شعره؛ فقد صور الجانب اللاهي من حياة الناس عموما وحياة الأدباء خصوصا، فجاء شعره كثيرا ومتنوعا؛ منه ما قيل في الخمر والغناء، ومنه ما قيل في الغزل بالجواري والغلمان، ومنه ما قيل في وصف المقاذر والفحش. أنواع عكست ذلك الميل العام إلى ممارسة كل صنوف اللهو واللذة والمجون الذي خلب العقول وأسر النفوس في هذا العصر غير عابئين بالقيود الدينية والخلقية والعرفية؛ فمن يقرأ النتاج الشعري لابن الحجاج، ويمعن في قراءته ويحاول أن يلتمس آثار هذه الظاهرة الاجتماعية فيه، يجد فيه صورا أدبية مختلفة تصور ظواهرها أدق التصوير.

إن ظاهرة المجون عرفت عبر فواصل تاريخ المجتمع العربي الإسلامي منذ العصر الجاهلي وعلى امتداد العصور الموالية، وكان نطاق انتشارها يختلف من عصر لآخر، ومن بيئة لأخرى، لكن الملاحظ كما ترى المصادر التاريخية التي أرخت لهذا العصر أنها كانت أوسع نطاقا في ظل بني بويه؛ إذ أصبحت شيئا مألوفا، وقد ساعد على ذلك سياسة الحكم التي أشاعت الفساد والتحلل والإباحية، فمهدت لتخريب المجتمع، والقضاء على وحدته و تسريع انهياره. فكان من مظاهر ذلك أن كثرت دور البغاء العلني، وبيوت الغناء واللهو والخلاعة في المحلات العامة والخاصة، فعَمَرت بطلاب اللذة والمتعة يمارسون فيها لذة السكر ولذة الولع بالغلمان والعبث بالجواري ولذة السماع، وعمرت أيضا بطلاب المال ممن كانوا يتاجرون أو يتآجرون بالخمور والألحان والغناء والأجساد؛ إذ "كان العابثون الذين يرتادون هذه المواطن يعكفون على اللذات في شره ونهم شديدين، ويمارسونها دون تستر أو احتشام فكأنهم كانوا يريدون بذلك أن يتحدوا الدين الذي حرمها أو يسخروا من الأخلاق و العرف والتقاليد التي استنكرتها...فشاعت من أجل ذلك ألفاظ الفحش والمقاذر بين عامة الناس وخاصتهم ومالوا إليها وأعجبوا بها"[2].

وسيقتصر حديثنا في هذا المقام عن أدب المجون باعتباره يشكل قطب الرحى الذي ستدور حوله موضوعات هذا المقال.

وحتى نضع القارئ في الإطار العام لتجليات هذا الأدب، سندرس ظاهرة المجون في شعر ابن الحجاج-باعتباره من أبرز شعراء اللهو والمجون في عصره -بعرض الأخبار المتصلة به والتي ساقها مؤرخو هذا الأدب -وعلى رأسهم الثعالبي -ومقابلتها بنماذج تمثيلية من شعره في هذا الباب وتحليلها ومناقشتها. فمن هو ابن الحجاج إذن؟ وماهي ظواهر مجونه في شعره؟

1. حياة ابن الحجاج

ابن الحجاج هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج النيلي البغدادي، أحد شعراء الشيعة الغلاة في العصر البويهي، وعبقري من عباقرة حملة العلم و الأدب فيه، " وقد عُد من كبراء الشيعة، ومن كبار شعرائها، وآخر من فحول الكتاب"[3]، فالشعر كان أحد فنونه، كما أن الكتابة كانت إحدى محاسنه الجمة، وله في العلم قنن راسية وقدم راسخة، غير أن انتشار أدبه الفائق، ومقاماته البديعة فيه، وتعريف الأدباء إياه بأدبه الباهر، وقريضه الخسرواني، أخفى صيت علمه الغزير، وغطى

ذكره العلمي. ينم عن مقامه الرفيع في العلوم الدينية وتضلعه فيها وشهرته في عصره بها، ولأدل على ذلك "توليه الحسبة في عاصمة العالم في ذلك اليوم بغداد "[4]. وهي من المناصب العلمية الرفيعة التي كانت تخص توليها في العصور المتقادمة بأئمة الدين، وزعماء الإسلام، وكبراء الأمة. وهي كما قال الماوردي: " والحسبة من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس كافة "[5]. وقد تولى المترجم له حسبة بغداد، وأقام بها مدة قبل أن يعزل عنها ويتولاها فقيه الشافعية وإمامها أبو سعيد الحسن بن أحمد الأصطخري (ت328هـ)"[6]. قال الماوردي:" فمن شروط والي الحسبة، أن يكون حرا عدلا، ذا رأي وصرامة، وخشونة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة"[7]. وإذن، فينبغي أن يكون متقلد هذا الأمر موصوفا الأمر موصوفا بالديانة، معروفا بالصيانة، معرضا عن مراصد الريب، بعيدا عن مواقف التهم والعيب، لابسا مدراع السداد، سالكا مناهج الرشاد؛ ففي تولية شاعرنا المترجم له الحسبة مرة بعد أخرى غنى وكفاية عن سرد جمل الثناء على علمه وإطراء عدله ورأيه، واجتهاده في جنب الله وصرامته، وخشونته في الدين، ورشاده وسداده.

2. ظواهر مجونه في شعره

2. 1. في الخمر والغناء

أخبرنا الثعالبي بأن ابن حجاج أراد أن يستميح شرابا، فقال :(الوافر)

ألا يـا إخوتـــي وذوي وِدادي ... دُعاءُ فـتىً إجـابتهُ مُنـــاهُ

زيارة دجْلةٍ والـورد غـــضٌّ ... قد استولى على قلبي هـــواه

فهذي ليس يفتنني سواهـــا ... وهذا ليس يسْبيني ســـواه

أما فيكم فتىً يرثي لصـــحوي ... فيسقيني المشوم ولوْ خـــراه[8]

ابن الحجاج في هذه المقطوعة، يرصد لنا لقطة سكير بئيس مولع بشرب الخمر، حال بؤسه دون أن يحقق رغبته في الشرب، فلم يجد بدا غير التوجه إلى الناس متسولا منهم جرعة من الخمر.

إننا ندرك ما كانت تفعله الخمر بالناس في ظل بني بويه؛ إذ كان يستهويهم شربها، فيلجأ البئيس منهم للحصول عليها إلى مختلف الحيل وشتى الأساليب، يتخذها وسيلة كالتسول.

وفي موضع آخر، أخرج الثعالبي من خمريات ابن الحجاج قوله: (الوافر)

وليس العيـش إلّا شـــرْب راحٍ ... إلَيَّ بِشربها السّـاقي يُشيـــرُ

وكأسٍ يعْدل السـّاقون فيهـــا ... ولكنْ حكْم سورتها يجـــورُ

وشدْوُ صغيرةٍ كالخشْف يحْدي ... بصوتِ غنائها الرّطْل الكـبيرُ[9]

في هذه المقطوعة، يصف ابن الحجاج أجواء البهجة في مجالس الخمر والغناء التي تنسي الهموم، وتمحو القلق وتشيع في جوانب النفس الغبطة واللذة والانشراح مشيرا في الوقت نفسه إلى أن الخمر حين تستأثر بصاحبها، تصبح ظالمة جائرة.

لا شك أن ابن الحجاج يستهتر بالحياة في هذا العصر؛ فأية حياة تعد الخمر فيها مصدرا للسعادة؟ فمن خلال هذه المقطوعة، أمكننا أن نستخلص فلسفة العصر الذي استدبرت الحياة لتعانق الخمر وتجعلها قاربا للنجاة. كما يقول ابن الحجاج أيضا :(الخفيف)

اسْقني بالكبار إمّا بِطـــــاسٍ أوْ بِكأسٍ محْـــرورة أو بجـــــامِ

لا تكلْني إلى الصّغار الّتـي تحْـــــــــــــكِي قوارير جـــونةِ الحجـــــام[10]

في هذين البيتين، يطلب ابن الحجاج من الساقي أن يسقيه الخمر في الكؤوس الكبيرة؛ فنهمه الشديد للخمر لا يرتوى إلا بها رافضا شربها في الأقداح الصغيرة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مكابدته الأحزان؛ فالشاعر هنا يمعن في الشرب إلى حد الثمالة، فشربه للخمر ليس كشرب أولئك الذين يستمتعون بدبيبها في أجسامهم بشربهم للأقداح الصغيرة، أما تلك الكبيرة فتعجل بالعربدة وفقدان العقل إيحاء منه على أن الخمرة الموصوفة هنا هي خمرة لا للنشوة وإنما هي وسيلة للهروب من الواقع المر الذي يقف الشاعر أمامه ضعيفا مستنجدا بالخمر.

ويقول من أخرى:(مجزوء الخفيف)

كنـــتُ كالمســـك مـــــرّةً بالدّنـــانير أشْتـــــتـــرى

فأنـــا اليـــوم بعـــدمـــــا صرتُ شيخاً كما تـــــرى

عبـــدٌ مـــنْ عنـــدهُ نبـــيـــــــــــــذٌ إذا كـــــان أحمـــرا

خمْـــرةٌ دنُّـــها يـــــــــضْـــــــــــمن مســـكـــا وعنْبـــر

وغـــلامٍ بكـــــــأسهـــا راح يسْـعى وبكّـــــــــرا

ظـــلَّ يفْـــسو وعنـــدنـــا أنّـــــه قـــدْ تبحّـــــــرا[11]

نجد الشاعر هنا يرثي حاله؛ فبعد أن كان يفيض مسكا وعنبرا يتقرب منه الناس، أصبح اليوم –وقد صار شيخا هرما – ذليلا للذي يسقيه خمرا.

ونجده يقول من أخرى: (الخفيف)

من شروط الصبوح في المهرجـان خِفّة الشّغل مـــع خُلوّ المكـــانِ

وحضور الطعام قبل طلوع الـــشـــــــــــمس مذْ أمـــسٍ بـــارد الألـــــوان

والعروس التي تزفُّ إلـــــى الأر طال في ثوبٍ صبْغـها الأرجوانـــي

رسموا طين دنّها وهْو رطـــــبٌ باسْم كسرى كسْرى أنو شـــــرْوان

وترى سوسن الكؤوس عليـــها كسوةً من شقائـــــق النعمـــــان

ثمّ خفْق الطّبول بين الأغانـــي واصْطكاك الأوتــار في العيــدان

والسماع الذي يملّ عـلى الأســـــــــــمـاع ما تــشتهي بلا تُرجمــان

فاسقياني محض التي نطق الـوحـــــــــي بتحريمــها مـــن القــرآن

والتي ليس للتأوّل فيهـــــا مذهبٌ غير طاعة الشّيطـــان

إنني خشيةً من النار أخشـــى كل شيء يُمسُّ بالنيـــــران

سكرة بعد سكرة تثبت اسمـي في المفاليج أو مع العميـــان

اسقياني في المهرجان ولـــو كا ن لخمس بقين من رمضـــان

أنا حوْدابةٌ وذهني صديـــدٌ تحت خصْي فرعون أوهامـــان

كل شيء قدّمْتَه لي فيـــه رأس مالٍ يأوي إلى الخسْـــران

غيْر حيّ أهل الحوا ميم والحـشـــــــــر وطه وســورة الرحـــمن

خمسةٌ حبهّم إذا اشتدّ خوفـي ثقتي عند خالقـي وأمانـي

قد تيقنت أنهم ينقلـــونـي من يـدي مالك إلى رضـوان[12]

يبدي ابن الحجاج شغفه بالخمر وذوبانه فيها جاعلا طقوسا لشربها؛ فلا بد من خلو المكان، وتوفر طعام بارد الألوان، يتناول قبل الشمس حيث تزف الخمر كعروس في ثوب معصفر تقدم في آنية موشاة برسوم لكسرى أو أنو شروان، في مجلس عاج بالغناء والضرب على الطبول بالعيدان.

كما أن الخمر عند ابن الحجاج تروي ظمأ العطشان، وتجعله من جند الشيطان، معترفا في الوقت نفسه بتحريمها من قبل العزيز الرحمن. وكل تأويل لهذا التحريم إنما هو مذهب طاعة الشيطان. لكن رغم ذلك فهو يمعن في طلب الخمر فيرى أن السكر المتتابع يجعله إما من أصحاب الفلج أو من العميان. كما لا يتوارى في أن يشربها قبل رمضان بعد أن يئس وعلم أنه من أهل النار يحشر مع فرعون أو هامان؛ فالخمر قادته إلى رأس مال الخسران. لكنه يعرج بنا فجأة-بعد ذكره لهذه العوالم الجحيمية -إلى عوالم أخرى يأتي فيها المقدس ليري الشاعر طريق النجاة؛ إذ أن حبه للقرآن وآل البيت عليهم السلام يضمن له التحول من يد مالك إلى يد رضوان.

إذا، كانت هذه بعضا من ظواهر مجون ابن الحجاج وهزله في الخمر والغناء والتي رمنا -على كثرتها-عدم الإطالة فيها، فاقتصرنا على إيراد بعضها التي رأيناها أكثر إفصاحا عن ظواهره من غيرها، ظواهر تعكس حياة واقعية قاسية كان يحياها القوم في العصر البويهي، حياة لم يكن لها أمس ولا غد، فالأمس قد ولى، والغد مخيف، وليس لهم إلا الساعة التي هم فيها.

2.2. في الغزل بالجواري والغلمان

ابن الحجاج يتفنن ويبدع في الوسائل التي تمكنه من إغواء الجواري؛ فمن ذلك يصف لنا كيف نصب كمينا في جُنَح الليل الداجي لجارية افترسها كما يفترس الطريدة العقاب معبرا عن ولعه بالمباعر مثل القُراد، وكيف يستهويه الوقوع في المقاذر مثل الذباب، يقول: (الوافر)

صمدت لها وجنح الليل داجٍ ... بأخطف للطريدة من عقابِ

وأولع بالمباعر من قُرادٍ ... وأوقع في المقاذر من ذباب[13]

ويقول من أخرى :(مجزوء الرجز)

يا صاح فاشرب واسقني ... من الشراب العكبري

مع أمردٍ عصعصهُ ... يجيد بلع الكمر

أو قينة طُنبورها ... المحفوف صلب الوتر

من الجنان وجهها ... وسرمها من سقر

لها حمر كأنه ... وجه غلام خزري

ذو شعرة أطرافها ... شبه رؤوس الإبر

العيش ما أطيب ذا ... يا مهجتي يا بصري[14]

يبين ابن الحجاج كيف أن نشوة مجلس الخمر لا تكتمل إلا مع غلام أمرد يجيد بلع الأيور، أو مع قينة لها سرم فيه حرارة وفرج شعره حاد كالإبر. واصفا نيكه لها وما يجده من قمة المتعة معها.

ويقول في موضع آخر:(المنسرح)

يا سائلي عن بكاي حين رأى ... دموع عيني تسابق المطرا

ساعة قيل الوزير منحدر ... أسرع دمعي وفاض منحدرا

وقلت يا نفس تصبرين وهل ... يعيش بعد الفراق من صبرا

شاورته والهوى يفتته ... والرأي رأي الصواب قد حضرا

أهوى الخداري والحزم يكرهه ... وتارك الحزم يركب الغررا

لأنني عاقل ويعجبني ... لزُومٌ بيتي وأكره السفرا

الخيش نصف النهار يعجبني ... والماء بالثلج باردًا خصرا

ولا أقود الخيل العتـــاق بلـــى أســـوق بـــين الأزقة البقـــرا

من كل جاموسة لعنبـــــــلها رأس بقـرنيه يفـــلق الحجـــرا

لما أتتني بالليـل مقبلـــــــة وثوبهـــا بالخـرا قد ائتـــزرا

تركض مثل الحصان نافـــــرة ومن يرد الحصان إن نفـــــرا؟

مدّ ذِرَاعي في سرمها لبيـــــا وسد أيري في سرمها شعـــرا

أحسن في الحرب من صفـوفكـم غدا قعودي أصفف الطـــررا

هيهات أن أحضر القتـــال وأن ترى بعينـــيك فيه لي أثـــرا

بل الذي لا يزال يعجبـــني الـد بيـــب بالليل خائفـا حذرا

أنا إلى تلك وهـــــي نائمـــةً وذا إلى ذلك بعد ما ســـكرا[15]

يخبرنا ابن الحجاج بأنه دُعي إلى الخروج مع الأمير إلى الحرب، فجعل يبحث عن معاذير، وبدل أن يصف الخيل والشجاعة والإقدام في الحرب أخذ يصف البقر ونيكه لها وكيف يفضل الدبيب بالليل إلى امرأة نائمة أو غلام سكران؛ فهو يمجد النيك وينأى بنفسه عن الحرب وأهوالها.

نلمس بجلاء كيف يعكس الشاعر في هذه الأبيات تقاعسه عن الحروب، وركونه إلى الملذات والخلاعة. مما يدل على تدهور القيم وتفسخها في مجتمع يعيش في ظل الحكم البويهي، إلى جانب التهاون وعدم القيام بالواجبات في الذود عن حوزة الوطن.

يظهر لنا مما تقدم من ظواهر مجون ابن الحجاج في الغزل بالجواري والغلمان صور عكست بلا شك شيوع حب الجواري والغلمان في هذا العصر؛ بحيث " إننا لم نعثر على رجل أحب امرأة حرة أفضى به إلى الهيام أو التلف، كما كان يحدث لمن أحبوا الفتيان والجواري، فكان من أثر هذه الظاهرة أن شاع التغزل بالجواري والغلمان، وحل محل التغزل بالحرائر"[16].

وإذا كانت" تلك الصور الأدبية تمثل جانبا من حياة العبث والمجون في شعر ابن الحجاج، هي من النوع الذي يمكن أن يحتمل ويستساغ على نحو ما. ولكن الذي لا يمكن أن يحتمل ولا يمكن أن يستسيغه ذوق، ولا يجري به قلم، هو هذا الشعر الماجن الذي يندى له الجبين خجلا، ويتعثر به اللسان حياء، هو هذا الشعر الخليع الذي يتناول وصف العورات والسوءات والمقاذر بأبشع الألفاظ وأصرحها وأفحش المعاني وأقبحها"[17]. فماذا كانت ظواهر مجون ابن الحجاج في هذا الباب؟

3.2. في المقاذر و الفحش

يستحيل على ابن الحجاج ألا يضمن شعره أشياء قذرة؛ فهو يؤمن بأن السخف جزء من القصيدة، كما الكنيف جزء من الدار؛ يقول :(الوافر)

وشعري سخفه لابدّ منـــــهُ فقد طبنا وزال الاحتشـــــامُ

وهل دارٌ تكون بلا كنيـــفٍ فيمكن عاقلاً فيها المقـــام[18]

إلى أن يقول:(الوافر)

تراني ساكناً حانوت عطـــرٍ فإن أنشدت ثار لك الكنـيفُ[19]

ونلفي ابن الحجاج يمزج بين اللذة الجنسية وبين القاذورات؛ يبحث عن اللذة في فضلات المرأة وإفرازاتها مبتعدا بذلك عن الصورة المثالية التي رسمها الشاعر العربي للمرأة في نوع من الحياء والحشمة؛ حيث نقل التغزل بالمرأة من مرحلة التكتم والوقار إلى مرحلة الانفضاح والإباحية.

يقول:(مخلع البسيط)

مولاي ذا اليوم يوم سعـــدٍ أشرف عندي من ألف شهـــر

نذرت فيه إذا التقينـــــا سكرا إلى الليل بعـد سكـــر

مع قينة لا تريد غيـــــري فهي تجيـــبني بغيـر حـــذر

أيري على أنـــــه طويـــلٌ أقصر من بظـــرها بشبـــر

لصوف شعر استها مـــدادٌ يعجـــنه بـــولها بحبـــــر[20]

إلى أن يقول :(مجزوء الكامل)

ضرطتْ ونحن بعـــــــكبرا فتشوّشتْ سفن الغـــروبِ

وفست على ريح الشمـــــا ل فألحقتها بالجنـــــوب

ومسحت مبقلة استـــــها فوجدتها ألفـي جريـــب[21]

ويقول من أخرى :(مجزوء الكامل)

ولقد عهدتك تشتهـــــــي قربي وتستدعي حضـــوري

وأرى الجفا بعـــــد الوفـــا مثل الفسا بعد البخـــــور

يا خرية العدس الصحيـــح النيء والخبـــز الفطيـــر

في جوف منحلّ الطبيـــعة والقـــوى، شيخٍ كبـــير

يا فـــــسوة بعد العشـــا البيـــض واللبـن الكثيـــر

يا ضـــرْطة الشيخ المبـجّـل بيـــن حســـادٍ حضـــور

ياريح ســـــــرقين البغـــا ل يداف في بول الحميـــر

يانـــــتن رائحـة الطبيـــخ إذا تغـــيرفي القـــــدور

يا بول صبـــيان الفطـــام ويا خراهـــم في الحجـــور

وأرى بعيني لحمـــك الـــــــــــــــــــمطبوخ في نـــار السّعيـــر[22]

واضح في هذه الأبيات كيف تصير الفضلات والقاذورات عند ابن الحجاج سلحة فتاكة يحطم بها مهجوه؛ فبعد أن عدد له مجموعة من الصفات المقززة والمثيرة للغثيان، تمنى له في النهاية أن تلقاه خيل بني كلاب، ويطبخ لحمه في نار السعير، ويمزق جسده بين السباع، ويلتهم لحمه بين النسور في السماء.

خاتمة

كان هذا عرضا لبعض ظواهر مجون ابن الحجاج مع مقابلتها بنماذج تمثيلية من شعره، من قرأها وجدها تدل بوضوح على فساد الذوق وتبلد الحس وتغير مفهوم الأخلاق في ظل بني بويه حتى وصلت هذا الدرك الأسفل من الانحلال الفظيع، ولكن الحياء والخجل والإشفاق على المروءة والذوق السليم من أن يصابوا بسوء، تمنعنا كلها من أن نثبت بعض النماذج الأكثر خلاعة، ظواهر تعكس حياة واقعية قاسية كان يحياها القوم في العصر البويهي، حياة لم يكن لها أمس ولا غد، فالأمس قد ولى، والغد مخيف، وليس لهم إلا الساعة التي هم فيها.

وهكذا فلا عجب أن يتقبل المجتمع في هذا العصر الخمر والغناء قبولا حسنا، فينهمك الناس فيهما انهماكا شديدا. ولا عجب أيضا أن يندفع الأدباء – ومنهم ابن الحجاج – تحت تأثير هذا التيار الجارف ليستجيبوا لرغباتهم الخاصة ولرغبات ممدوحيهم وأهل عصرهم فيكثروا من وصف الخمر والغناء ووصف مجالسهما، وآلاتهما، ويجاهروا بالدعوة إلى ممارستهما في شيء كثير جدا من الحماس.

وإذا كانت تلك الظواهر تمثل جانبا من حياة اللهو والعبث والمجون في شعر ابن الحجاج، هي من النوع الذي يمكن أن يستسيغه الذوق السليم. ولكن الذي يمجه الذوق والخلق الصادق، ذاك الشعر الماجن الذي يندى له الجبين حياء وخجلا، وذاك الشعر الخليع الذي يصف العورات والسوءات والمقاذر بأبشع الألفاظ وأصرحها وأفحش المعاني وأقبحها.

الهوامش

1. الأدب في ظل بني بويه، ص: 252.
2. نفسه، ص:251-252.
3. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ص:136.
4. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ص:426.
5. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص: 322.
6. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ص:426.
7. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص: 300.
8. اليتيمة، ص:41.
9. نفسه، ص:63.
10. نفسه، ص:63.
11. نفسه، ص:64.
12. نفسه، ص:65-66.
13. نفسه، ص:71.
14. نفسه، ص:72 -73.
15. نفسه، ص:43-44.

16. الأدب في ظل بني بويه، ص:274.
17. نفسه، ص:274.
18. اليتيمة، ص:33.
19. نفسه، ص:33.
20. نفسه، ص:73-74.
21. نفسه، ص:74.
22. نفسه، ص:35.